ولاتجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم

ومنهم من لم ير فيه جمالاً ، كعبد الملك بن صالح حين قال : « ما استشرت أحداً إلا تكبّر على ، وتصاغرت له ، ودخلته العزة ، ودخلتني الذلة ، فعليك بالاستبداد ؛ فإن صاحبه جليل في العيون ، مهيب في الصدور ، وإذا افتقرت إلى العقول حقرتك العيون ، فتضعضع شأنك ، ورجفت بك أركانك ، واستحقرك الصغير ، واستخف بك الكبير ، وما عز سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه وآراء نصائحه » . وكلا القطعتين من الأدب .

أما التعبير الإيحائي فليس من الأدب ، ولا الفن الجميل ، لأننا نعني بالإثارة ، تلك الإثارة الوجدانية الروحية الخالصة ، أما إثارة الغريزة الجنسية فليس من عمل الأدب ، ومثل هذا اللون من القول مثل الصور الخليعة الماجنة لا يعدان من الفنون الرفيعة .

أحمد أحمد بدوي

المدرس بكلية دار العلوم — بجامعة فؤاد الأول

طرائف من العصر المملوكي :

عبرتان من عبر التاريخ

للاستاذ محمود رزق سليم

هاتان عبرتان من عبر التاريخ — وكم فيه من عبر — فسوقهما إلى زعماء العرب وشعوبها ، في هذه الأزمة الخانقة والآونة الحاسمة التي يمرون بها أو تمر بهم . ولعل فيهما متعظاً ومعتبراً

في كل عبرة منهما نزل خطب ، وألمت شدة ، وحزبت ضائقة ووقف عدو لدود بالمرصاد .

أما في الأولى فقد التأمت الصفوف وتنادت الأصوات وتصافت النفوس ولمت الأيدي واجتمع الهوى ، حتى أصبح المسلمون — أو بعضهم — جبهة واحدة ، فردوا العدوان ودفعوا الطغيان وكانت عاقبتهم نصراً مؤزراً وغلباً مظفراً .

أما في الثانية فقد تغيرت القلوب وانتشر الشمل وتفرقت الأيدي ، وأضمر الغدر ، وحيكت الخيانة ، فكانت العاقبة خساراً ودماراً ، وشقوة وبواراً .

هما موقفان من مواقف الأمة المصرية وقادتها ، كان أولهما في مطالع العصر المملوكي ، وكان ثانيهما في أخرياته . يتمثل في الأول مزايا الإقدام والشجاعة ، وعواقب الحزم والعزم ، وفوائد الوحدة والتعاون ، بما يحق الحق ويصون الكرامة ، ويُبقي العزة ويؤثل المجد ، ويضفي المهابة . ويتمثل في الثاني مثالب الخور والجبن ، وعواقب التردد والضعف ، وغرم التفرق والخلاف . بما يهدر الحق ويشيع الذل ويمكن للفساد ، ويصوح به نبت الحياة .

أقبل عام ٦٥٦ هـ يحمل في جعابه للأمم الإسلامية مهاماً مريبة ، وعلى متاكبه رماحاً مشرعة ، تنذر بالويل والثبور ، والهلاك والدمار . فها هم أولاء التتار قد نسلوا من أواسط آسيا بعد أن خربوا الديار وأباحوا الدمار ، بقلوب فاجرة ، وأفواه فاغرة وحب السفك تغلي به دماؤهم ، وتضطرب أعضاؤهم ، وقد هيئوا العدة ، وجمعوا الكيد ، فتجهم بهم وجه الأفق ، واربدت بهم صفحة السماء ، واكفهر جو الغدر وأرجف المسلمون في كل مصر أن حدثا جللا سيقع . فتدافعت سيول التتار إلى بغداد والعراق ، بعد أن خلفوا وراءهم أمماً باكية وشعوباً ممزقة وعروشاً مثلولة فأنهوا ببغداد فصول روايتهم ، وأزالوا من سمائها شمس الخلافة العباسية ، وأثخنوا في أهلها ما شاء لهم الغرام والشراسة وحب السفك والفتك .

تسامع الناس بأخبارهم في ديار حلب والشام ومصر ، وأخذت الفرائص ترتعد هلعاً وفزعاً تترقب هبوط هذا الوباء التتري آونة وأخرى . وكانت ديار حلب والشام مقسمة دولا صغيرة متنابذة متعادية متوائبة يحكمها بقايا من أمراء بني أيوب . بينما كانت مصر قد تأثل فيها المماليك دولة عتيدة وسلطنة مجيدة جهد مؤسسها عز الدين أيبك في توطيد دعائمها وتثبيت أركانها منذ عام ٦٤٨ هـ . ثم خلفه ابنه المنصور ، وكان حدثاً صغيراً ، فأقيم الأمير « قطز » المعزي مملوك أبيه نائباً لسلطنته وفوضت أمور الدولة إليه . وكان على دمشق أمير من الأيوبيين اسمه الناصر ، ترددت الأطماع في نفسه أن يدهم مصر ويستأثر بملكها . فلذلك كان بينه وبين سلطان مصر دخل وجفاء . وبينما كان الناصر بين الخوف والطمع إذ وافته رسل « هولاكو » التتري تطالعه برسالته التي يهدده فيها ويتوعده ، ويدعو إلى الدخول في طاعته . وبين سطورها

يخاطبه ويقرو . « إذا وقفت على كتابى هذا ، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه رُوى زمين ، تأمن شره وتنل خيره . كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت من قبل فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى « كروان سراى » ، فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، وإن كانوا فى الأرض خسفناها .

أين النجاة ولا مناص لهارب ولى البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت فى قبضتى الأمراء والوزراء

فغُزعت أحشاء الناصر ، وسُكت ركبتاه ، وسقط فى يده ولم يدر ما يصنع . فأرسل إلى « قطز » يستجديه معونة مصر ، بعد أن كان طامعاً فى ملكها وكان « قطز » قد شعر بالخطر القريب ، وفطن إلى الشر المرتقب فأخذ يعد للأمر عدته ، ويتخذ له أهبته . وتحيل حتى خلع سلطانه « المنصور » وقفز بنفسه إلى سرير الملك ، ليكون طلق اليد حر الإرادة فى تدبير الأمور ، فى هذا الوقت الحرج والموقف الشائك . غير أن وثوبه إلى العرش قد أحقد بعض الأمراء عليه وأحنقهم ، فتجهموا له ، وهموا به فأخذ يترفق بالثائرين حتى هدأ من ثورتهم ، ويتلطف بالحانقين الحاقدين حتى قلل من حنقهم وثبط من حقدهم ، واعتذر إليهم بأنه لا مأرب له فى ملك أو سلطان ، ولا مطمع فى عرش أو تاج وإنما همه الأول أن يكونوا يداً على من سواهم ، وأن يدفعوا عن أنفسهم وديارهم خطر التتار ، الذين ما دخلوا قرية إلا أفسدوها ، ولا مصراً إلا جعلوا أعزة أهله أذلة ، ولا بلداً إلا عبثوا بتراثه ، أولئك التتار الذين ضجت لهم الأرض وملئوا فجاجها بالدماء ، وعُرفوا بأنهم القوة التى تغلب ، والوباء الذى لا يستطاع كفاحه .

ويذكر بعض المؤرخين أن هذا السلطان « قطز » هو محمود ابن ممدود ، وأنه ابن أخت جلال الدين شاه خوارزم الذى أباد التتار ملكه وعفوا أثره . وقع محمود هـذا فى الإسار ، وتنقل به ذله من دار إلى دار ، حتى دفع به القدار إلى مصر ، فابتاعه سلطانها « المعز أيبك » فاستأثر برقه . وكان حبيباً إلى قلبه قريباً إلى مجلسه ، أثيراً عند تدبيره . فعلا نجمه ، وزكت فيه مخايل الإمارة ، وروى فى أعماقه صوت الثار وصلصل جرس الانتقام فما هو إلا أن ملك الناصية وأخذ بالزمام ، حتى قاد أمراءه وجنوده بعقاد الحزم وذكرهم بواجبهم المقدس حيال الاسلام ، وأنهم إن أحجموا باد . وإن أقدموا سياد . وهاهم أولاء يرون دوله تسقط فتبيد واحـدة إثر أخرى . فراعهم بهذا الخطاب ، وملكهم بمنطقه الخلاب ، فألقوا إليه السلم ، وتوافدوا إلى حظيرته زمراً زمراً ، بعد أن بت فيهم عزماً من عزمه ، وحماساً مما يتقد فى جسمه .

تطايرت الأخبار منذ أوائل عام ٦٥٨ هـ إلى مصر ثوب التتار على حلب ودمشق وغيرها من بلاد المسلمين ، وما اجترحه أولئك الطغاة فيها من قتل وسبي ، وسلب ونهب ، وتخريب وتدمير وتشريد ، وظلم وجور ، وعجت التخوم والمسالك بالفارين واللاجئين من وجه البغى والعدوان .

وجاء النذير إلى مصر ، ووفدت إليها رسل هولاكو — بعد أن أسر الناصر وخرّب دياره — ومعهم رسالة إلى سلطانها يقول فيها : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً ، القان الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المماليك الذين هـربوا من سيوفنا إلى هـذا الإقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكي ، ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قـد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب . فأى أرض يأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، خيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال » ... الخ .

حزم « قطز » رأيه وشاور أمراءه ، فأيقنوا جميعاً بالخطر

الداهم والشر المستطير . وأنهم إن لم يأخذوا الطريق على عدوهم بقلب شجاع ونفس مقامرة وروح فادية ، دهمهم فى عقر دارهم ، وأزال ملكهم ، وخرب ديارهم ، وهم البقية القوية من جند الإسلام . ولهم عبرة بما اجترح التتار فى الشام والعراق والجزيرة وأواسط آسيا . فقر رأيهم على قتل رسل « هولاكو » وعلقوا رءوسهم على باب زويلة ، وأعلنوا فى الناس بالجهاد ، والخروج فى سبيل الله ، دفاعاً عن النفس والعرض والدين . وأعجل الجنود عن شئونهم ، ودُبر المال ؛ ورأى السلطان تواكل بعض الأمراء ، فقرعهم تقريعاً شديداً ، وقال لهم . « يا أمراء المسلمين انكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون . وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته . فإن الله مطلع عليه . وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين » فأقبل الأمراء عليه يقسمون له يمين الطاعة والولاء .

نفر جيش مصر بعدده وعدده ، يتقد حماسة ويفيض رغبة فى القتال وعلى رأسه سلطانه « قنطز » الشجاع الباسل الصنديد . يحث به أمراء باعوا نفوسهم لله ، يحدوهم الولوع إلى لقاء التتار ، فإما حياة كريمة ونصر مؤزر ، وإما موت لا يقاس به موت .

وهناك فى عين « جالوت » بفلسطين ، التقى الجمعان فى معركة حامية سالت فيها أنهار الدماء ، وتجمعت أكداس الأشلاء . ولما اشتد وطيسها على المسلمين صرخ « قطز » من الأعماق قائلا : « وا إسلاماه » فدوى صوته فى آذان جنوده . وكأنما كانت صرخته إشارة بالكر ، أقدموا لا هيبة ولا وجل ، وأخذوا التتار من كل جانب حتى قتل قائدهم « كتبغا » وولت فلولهم لا تلوى على شىء . فتبعهم المسلمون إلى « بيسان » فدارت بها رحى معركة جديدة ، دحر فيها التتار وأسلموا للفرار ، تاركين من ورائهم قتلى قد ضاق بها الفضاء .

استطاع جيش مصر وحده بهاتين الوقعتين أن يحمى بلاد الشام من شر التتار ، وأن يقذف بهم إلى غير رجعة بعيداً عن أرض مصر ، فلم تطأها لهم قدم . وتعتبران نقطتى تحول حاسم فى تاريخ مصر لا تقلان فى أهميتهما عن موقعة « العلمين » فى الحرب الأخيرة . وبدت بهما قوة التتار خرافة لا سند لها ، وأن التغلب عليها مستطاع ، متى صدق الإيمان ، واجتمع الصبر والتعاون ، وأتحدت القلوب . وقد عاشت سلطنة المماليك بعدهما بفضل شجاعة « قطز » وموقفه الرائع ، أكثر من قرنين ونصف .

أما فى الموقف الثانى فقد كان فى عام ٩٢٢هـ على عهد سلطان مصر قانصوه الغورى ، الذى اقتيد إلى العرش بين بكائه ونحيبه رهبة وإشفاقاً من المصير . فقد كانت البلاد مزقتها الفتن الداخلية والحروب الأهلية ، ولج بين بنيها الخلاف ، وصنع بهم ما يصنع السيف . وخوت خزائنها على عروشها . ولم تعد بها إلا حثالات وشراذم من أمراء وجنود ، تملأ كل شرذمة العصبية لنفسها ، وحب الجهاد لنقمتها ، غير آبهة لسواها إلا مزاحمة ومجالدة ، ولم يعد يعنيهم من شئون البلاد شىء إلا استغلالها . بينما كانت دولة العثمانيين فى آسيا الصغرى تبسط سلطانها وتنشر طغيانها . وما وافى عام ٩٢٢ هـ حتى أخذت تمهد لغزو الشام ومصر . ووطئت أنباء استعدادها آذان البلاد . فاضطر الغورى إلى الخروج عن البلهنية والطمأنينة ، إلى العمل على اللقاء . وشرع يجمع القادة والجند ويحثهم على التهيؤ للخروج إلى الجهاد ، فكان كأنه يستجديهم شيئاً لنفسه ، لا أنه يتقاضاهم القيام بواجبهم . لذلك اثاقلوا عنه ولم يخفوا إليه . وكان كل ما حوله يخذل عن القتال ويثبط عن النفور إليه إلا بقية ممن لا تزال بهم بقية من ضمير ، وقبس من إخلاص ، وإثارة من كرامة .

وكانت بالسلطان غفلة لا تنبغى لمثله فى وقت شدة وضيق ، وكلما وردت أخبار تومى إلى الصلح والتراضى بينه وبين العثمانيين هش وبش ، وهلل وكبر ، وفرح واستبشر . ولعله كان يرى من وراء ذلك إلى حسم العداء وحقن الدماء ، ولاسيما أن العثمانيين إخوان فى الدين . ولكن اللهج بالصلح ضعف ، واشتهاء الموادعة خور ، والاستسلام للعافية جبن .

وكانت تجيئه رسل السلطان سليم فيهرونه باللسان المعسول ، والهدية النفيسة ، فيلقاهم لقاء الحافل ، ويعانقهم عناق الخليل ، وما كانوا إلا ليمهدوا للظفر بالغافلين . وبث العثمانيون العيون لينقلوا إليهم أخبار مصر وجيشها الباسل وسلطانها المغوار ، فلم يعمل أحد على قطع دابرهم والقضاء عليهم ، وبعث نائب السلطان بالشام إليه يجأر بالشكوى مما بالشام من غلاء فاحش وجدب ضارب ، وينكر أن للعثمانيين رغبة فى القتال ، ويدعو السلطان إلى القبوع والقعود .

ومهما يكن من شىء فقد أنصف السلطان نفسه ، وأعد العدة

وأنفق المـال ، وجمع الجند وعين القادة ورتب أمر الخروج إلى الشام للاقاة بنى عثمان . وهو لا يعلم أن العثمانيين قد اتصلوا ببعض أمرائه فوجدوا منهم نفوساً هزيلة وقلوباً عليلة لا تكبر الأمانة ، وتستعذب الخيانة فى سبيل المطمع غير المشروع ...

خرجت مواكب الجيش تترى ناسلة إلى دمشق فحلب ، وعليها طلاوة وبها خيلاء ، يحسب من يراها أنها إلى النصر تسير وإلى الغلب تطير . وهو لا يعلم أنها تجمع قوماً إن لم يمزقهم الضعف فقد فرقهم الخلاف ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، عمادها فريقان من المماليك هما « الجلبان والقرانصة » ، وبينهما عداء مستحكم اضطرمت ناره وتطاير شراره ، وقد تمكن منهم الفساد وحب العناد .

لا نريد أن نسهب إسهاباً تاريخياً فى وصف مظاهر الضعف فى الجيش المصرى ، ولا فى أنباء قتاله حينذاك ، فقد امتلأت بهذه الأنباء بطون الموسوعات .

وحسبنا أن نذكر أن هذا الجيش — على علاته — اتى جيش العثمانيين على كثرة جنده ووفرة عدده ، فكاد يذهبه بدداً ويفرقه طرائق قدداً ، وذلك فى موقعة « مرج دابق » لولا أن أطلت الخيانة بقرونها ، وطلع الغدر عليه مطلع الشيطان . فانحاز بعض القادة عن سلطانهم بلا سبب ، ودبت الوقيعة بين القراصنة والجلبان فشغلتهم أنفسهم عن واجبهم ، فكر العثمانيون عليهم وطعنوا القلب ، وفيه السلطان يدافع عن شرفه وكرامته ، وقد أسفه تفرق الأنصار عنه ، وفرار الأصحاب منه . فاضطرب لبه ، وامتلأ بالحسرة قلبه . وفلج لوقته وتهاوى عن متن جواده وتناولته سنابك الخيل . ودارت الدائرة على جيش مصر ، ورجعت إليها فلوله باكية حزينة .

وتعتبر موقعة « مرج دابق » المشئومة من الواقع الفاصلة فى تاريخ مصر . فتحت أمام العثمانيين الطريق إلى غزوها وتمام إخضاعها . وهكذا جعت مصر والشام أمام الغزاة ، ووقعتا فريستين سهلتين لهم ؛ فلبثوا بهما زهاء ثلاثة قرون تعسة شقية ، لم تسعدا فيها بيوم هناء .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

ظهر حديثاً كتاب :

الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى

للأستاذ

علال الفاسى

العضو المراسل لمجمع فؤاد الأول للغة العربية

أول كتاب فى نحو ٦٠٠ صفحة يسجل المقاومة المغربية الدبلوماسية والعسكرية والسياسية ، ويشرح تطور الوعى القومى فى كل من تونس والجزائر ومراكش ، ويوجه العالم العربى نحو وعى جديد وميثاق حر للرجل العربى .

الثمن ٥٠ قرشاً أجرة البريد ٨٣ مليم

ويطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلى باشا بالقاهرة

ومن المكتبات الشهيرة